﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر سبحانه أنَّه يحكم بين عباده يوم القيامة ويجازي كلًّا من المسيء والمحسن بما هو له أهل؛ أعقب هذا ببيان أنَّه العليم بما يستحقُّه كلٌّ منهم، فيقع حكمه بينهم بالعدل[1].

إحاطته سبحانه بالخفيّات والمعلنات؛ تفضُّل وإنعام منه على جميع الكائنات

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِتَٰبٍ﴾: (كتب) أصلٌ يدلُّ على جمع شيء إلى شيء[2]، الكَتْبُ: الجمعُ وضمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة، يقال: كتبتُ السِّقاء، وكتبتُ البغلةَ أكْتُبُ وأكتِبُ كَتْبًا: جمعتُ بين شُفرَيْها بحَلْقة[3]، ومعناه في العرف: ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللَّفظ، فالأصل في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ لكن يُستعار كلُّ واحد للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ الله كتابًا، وإن لم يُكْتَب[4].

والكِتاب في الأصل مصدر، ثم سُمّي المكتوب فيه كتابًا، ويُعَبَّر بالكتاب عن اللَّوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 535، وابن عادل، اللّباب: 14/ 145، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 91 - 92، والمراغي، تفسير القرآن: 17/ 141، والهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 400.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (كتب).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كتب).

(5) الراغب، المفردات: (كتب)، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، والخازن، لباب التأويل: 3/ 264.

2) ﴿يَسِيرٌ﴾: (يسر) أَصْلانِ يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى انْفِتاحِ شَيْءٍ وخِفَّتِهِ، والآخَرُ عَلَى عُضْوٍ مِنَ الأَعْضاءِ[1]، وتيسَّر كذا واسْتَيْسَر: تسهَّل وتهيَّأ[2]، اليُسْرُ: اللّين والانقياد، وهو ضِدُّ العُسْرِ والمَشَقَّةِ[3]، والتَّيسيرُ: التَّسْهيلُ، يكون في الخير والشر، يُقال: يَسَّرَ الأَمْرَ: إذا سَهَّلَهُ ولَمْ يُعَسِّرْهُ، وهو مَأْخوذٌ مِن اليُسْرِ، أي: السَّهل، ومَعناه: اللّينُ والانقيادُ.

واليسير: القليل، وشيء يسير؛ أي: هيِّن[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: هيِّن، وهو خطاب لهم على ما يتعارفونه من عسر الأمور وسهولتها[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استأنف البيان القرآنيُّ جملةً جديدةً غرضُها الاستفهام التَّقريريُّ؛ لإثبات حقيقة العلم والقضاء بين النّاس المذكورَين سابقًا فقال على سبيل التَّأكيد والتَّقرير: ألم تعلم أيُّها الرَّسول الكريم أنَّ اللّه سبحانه محيط بعلمه جميعَ ما في السَّماوات والأرض، ولا يَعْزُبُ عنه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وهو الحاكم بين خلقه يوم القيامة؛ لِعلْمِه بجميع ما عملوه في الدُّنيا، إنَّ ذلك كلَّه كائن وثابت في اللوح المحفوظ؛ لأنَّه سهل يسير على اللّه تعالى[6].

علم الله شامل لكلِّ خفيٍّ وجليٍّ وصغير وكبير في السَّماوات وفي الأرض

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

فُصِلت هذه الآية الكريمة عن سابقتها؛ لأنَّها مستأنَفة مقرِّرة لمضمون ما قبلها، حيث "أخبر تعالى في الآية التي قبلها أنَّه يحكم

اللـه العليم الذي لا يغيب عنه شيء في الكون، إنَّ ذلك كلَّه في كتاب مكنون

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (يسر).
(3) الراغب، المفردات: (يسر).
(4) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يسر).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (يسر)، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 364.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 395 - 396، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 552.

بين النّاس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فأتبع ذلك الخبر بأنَّ عنده عِلْمَ كلِّ شيء ليقع الحكم في معلوم، فخرجت العبارة على طريق التَّنبيه على علم الله تعالى وإحاطته وإنَّ ذلك كلَّه في كتاب، وهو اللّوح المحفوظ"[1]؛ أي: وإذ قد علمتَ هذا وأيقنت فاعلَمْ أنَّه يعلم أيضًا ما أنتم مختلفون فيه فيحكم بينكم[2]؛ لأنَّه عالم بما يستحقُّه كلُّ أحد منكم، فحُكْمُه سبحانه واقعٌ بالعدل لا بالجَوْر[3]، فالاستئناف "لزيادة تحقيق التَّأييد الذي تضمَّنه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾"[4].

ولمّا اختلفت الجملتان الكريمتان خبرًا وإنشاءً حسُن الفصل بينهما، وقد أدَّى هذا الفصل إلى إثارة الانتباه، وشحذ الذِّهن، وهو مطلوب في الجمل المصدَّرة بسؤال.

تعيين المخاطب بقوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾:

المخاطَب الرَّسول الكريم، وعموم المخاطَبين بالذِّكر العظيم، أو المنكِر الجاحد الأثيم

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ إمّا أن يكون للرَّسول ﷺ، ومعناه تقوية قلب الرَّسول ﷺ، والوعد له وإيعاد الكافرين بأنَّ أفعالهم كلَّها محفوظة عند الله لا يَضِلُّ عنه ولا يَنْسى، فالخطاب للنَّبيِّ ﷺ والمراد بذلك سائر العباد؛ لأنَّ الرِّسالة لا تثبت إلا بعد العِلم بكونه تعالى عالمًا بكلِّ المعلومات[5].

وإمّا أن يكون الخطاب للكافر المكذِّب بالبَعث والمنكِر لإحاطة الله تعالى بكلِّ شيء علمًا يترتَّب عليه الثَّواب والعقاب يوم الدّين.

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغرضُه:

إقامة الحجّة بالإقرار، وتوبيخ المعاند على الإنكار

معرفةُ نوعِ الاستفهام وغرضُهُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 133.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 95.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(5) ابن عادل، اللباب: 14/ 145.

ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ يترتَّب على تعيين المخاطَب بالآية الكريمة، فعلى القول بأنَّ المخاطَب هو النَّبيُّ ﷺ، أو عموم المؤمنين؛ فيكون الاستفهام تقريريًّا، و"معناه تقوية قلب الرَّسول ﷺ والوعد له وإيعاد الكافرين بأنَّ كلَّ فعلهم محفوظ عند الله لا يضلُّ عنه ولا ينسى"[1]، والله سبحانه – وإن كان لا يحتاج إلى تقرير العباد بعلمه وأنَّه إذا أخبر بأنَّه يعلم ما في السَّماوات والأرض فهو حقٌّ – ولكنَّ الله تعالى يريد أن يكون الخبر من المخاطَب وليس منه سبحانه، فيكون إقرارًا من العبد تقوم به الحجَّة منه على نفسه.

وإذا كان المخاطَب بالآية الكريمة هو الكافر المعاند المنكِر لعلم الله تعالى؛ فيكون الاستفهام إنكاريًّا للتَّوبيخ[2]، ومعناه: أتنكر أيُّها المعاند إحاطة الله بكلِّ شيء علمًا، ولا تعلم أنَّ الله يعلم ما في السَّماء والأرض من الأمور الظّاهرة والباطنة، وأنَّ ما يخفى على خلقه فإنَّه لا يخفى عليه سبحانه، بل سطَّره في كتاب محفوظ؟! أي أنَّ هذا الأمر من الوضوح والجلاء بحيث لا يتصوَّر أن يُنكَر أو يُجحَد، فكيف "يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنَّه يعلم كلَّ ما يحدث في السَّماوات والأرض"[3]؟!

نكتة التّعبير بالعلم بدلًا من الرّؤية:

لـفـظ الـعـلـم أعـمّ، والتَّعبير به أتمّ

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أوثِر التَّعبير فيه بلفظ العِلْم بدلًا عن لفظ الرُّؤية حيث انْفَرَد هذا الموضع بالتّعبير بالعلم "أمّا في سائر القرآن: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ [المجادلة: 7]"[4] وإن كان لفظ الرُّؤية يأتي بمعنى العلم لكنَّ التَّعبير بالعِلم أعمُّ من التَّعبير

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 95، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 1/ 561.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 453.
(4) الكسائي، متشابهات القرآن، ص: 67.

بالرُّؤية؛ فالعِلم يتعلَّق بالموجود والمعدوم، وأمّا الرُّؤية فتتعلَّق بالموجود دون المعدوم، أو بما نُزِّل من الغيب منزلة الشَّهادة المدرَكة بالبصر توكيدًا له، فكان لفظ العِلم أنسب لمعنى عموم إحاطة الله تعالى بكلِّ شيء علمًا.

غرض التّعبير بالمضارع: ﴿تَعْلَمْ﴾:

نـفـي المـضـارع يدلُّ على انتفاء الـحـدث على تطاول المدَّة

يفيد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، لكنَّ دخول أداة النَّفي (لم) عليه يقلب زمنه إلى المضيِّ، ويكون معناه: (أما عَلِمتَ).

غير أنَّ العدول عن صيغة (أما علمت) إلى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ جاء لنكتة بديعة، وهي أنَّ الماضي المنفيَّ بـ (ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريب من الحال، وأما (لم) فليست مقيَّدة بزمن من أزمنة المضيِّ، كما أنَّ الماضي يدلُّ على أنَّ الأمر قد انقضى، وأمّا المضارع فإنَّه قد يدلُّ على التَّكرار، والتَّجدُّد والتَّطاول، فالفعل (كَتَبَ) يدلُّ على انتهاء الحدث، وانقضائه، والفعل (يَكْتُبُ) يدلُّ على تجدُّد الحدث واستمراره، فإذا دخلت (ما) على الماضي دلَّ على انتفاء الحدث بصيغة المضيِّ، وإذا دخلت (لم) على المضارع دلَّ على انتفاء الحدث في المضيِّ، لكن بصيغة التَّجدُّد والاستمرار، فدخول (لم) يدلُّ على أنَّ الحدث لم يحصل في الماضي على تطاول المدَّة واستمرارها، ويمكن أن يقال أيضًا أنَّه قد يُنفى بـ(ما) مع الماضي إذا أُريدَ نفيُ الحدث بصورته المنقضية التّامة، وينفى بـ(لم) مع المضارع إذا أُريدَ نفيُ الحدث في الماضي بصورة التَّغيُّر والتَّجدُّد فيشخص في الذِّهن بصورته المتجدِّدة، ثمَّ ينفيه بهذه الصّورة في الماضي[1].

فالحاصل أنَّ المعنى: ألم يتجدَّد لك عِلمٌ في كلِّ حادثة ينبيك عن إحاطة الله تعالى بكلِّ شيء علمًا؟ فحقُّ هذه الحوادث والأقضية

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 193 - 196.

والتَّدابير أن تزرع في القلوب بذور اليقين، فتثمر الإيمان والتَّوحيد، والثَّبات على الصِّراط دون أن تحيد.

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ مصدر مؤوَّل في محلٍّ نصب سدَّ مسدَّ مفعوليْ ﴿تَعۡلَمۡ﴾[1]، وأنَّ واسمها، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ خبرها[2].

مهما يقع في هذا الكون الفسيح الكبير فإنَّ الله به عليم خبير

وقد عُدِل عن التَّعبير بالمصدر الصَّريح: (ألم تعلم علمَ الله ما في السَّماء والأرض كائنًا) لما في التَّعبير بالفعل من معنى التجدُّد والاستمرار، وهو هنا بمعنى تعلُّق عِلم الله تعالى بالمعلومات، والتَّعبير بالمضارع أفاد شمول عِلم الله للحاضر والمستقبل، وإذا عَلِمَ ما في المستقبل فهو بما مضى أعلَمُ، فمهما يقع في هذا الكون الكبير فإنَّ الله به عليم خبير، قدَّره بحكمة، وكتبه في كتاب.

فائدة توالي المؤكّدات في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

لا يُنكِرُ عِلْمَ الله إلّا الكافرون السُّفهاء؛ لأنَّهم عن الحقِّ في عماء

اشتمل قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ على أكثر من مؤكِّد، منه: ورود (أنَّ) التي تقوم مقام تكرير الجملة مرَّتين، والجملة الاسميَّة المفيدة لمعنى الثُّبوت والاستقرار، وسدِّها مسدَّ مفعولَي (علم) التي تفيد اليقين، ووقوعها في حيِّز الاستفهام التَّقريريِّ، والتَّقرير ضرب من التَّوكيد، والتَّعبير بالمسند الفعليِّ المفيد تقوية الحكم وتوكيده.

وهذا لتنزيل غير المُنْكِر منزلةَ المُنْكِر مبالغةً وتوكيدًا، على أنَّ الخطاب موجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ بطريقة التَّقرير.

وإمّا أن يكون الخطاب موجَّهًا للمخاطَب المنكِر، فحَسُنَ توكيدُه بأكثر من مؤكِّد؛ إقامة للحُجَّة، ودفعًا للعذر.

اختصَّ الله تعالى بعلم ما يكون وما هو كائن، فلم يشاركه فيه كائن

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ:

جاء المُسْنَدُ فِعْليًّا في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ لإفادة

(1) محمود صافي، الجدول: 9/ 145.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.

التَّخصيص وتقوية الحكم: أمّا التَّخصيصُ فبقرينةِ إحاطةِ علْمِ اللّه تعالى بكلِّ معلوم، وأنَّ ذلك لا يَقْدِرُ عليه المخلوق ألبتَّة.

وأمّا تقويةُ الحُكْم فمُستفادٌ مِن إعادة الإسناد، حيث إنَّ الفعل ﴿يَعْلَمُ﴾ مسنَدٌ إلى المبتدأ الذي هو لفظ الجلال، وفيه ضمير مستتر يعود أيضًا على هذا المبتدأ، فكأنَّ الإسناد قد كُرِّر مرَّتين، وهذا ممّا يفيد تقويةَ الحكم وتوكيدَه[1].

فائدة إعادة لفظة العلم: ﴿تَعْلَمْ﴾، و: ﴿يَعْلَمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ترديدٌ، وهو تَكْرارُ لفظ العِلم مع تغيُّر المتعلَّق، حيث أُسنِد اللَّفظ الأوَّل إلى المخاطَب، وأُسنِد اللفظ الثّاني إلى ربِّ العالمين؛ وهذا من حسن البيان وتمام التَّأليف.

في التَّعبير بالعلم إفادة اليقين، وتكراره قطع لرؤوس الظُّنون

وفي التَّعبير بالعلم إفادة معنى اليقين، وفي تكراره توكيد لهذا المعنى، وفيه دليل على أنَّ أمور الاعتقاد إنَّما تُبنى على اليقين الذي يذيب نورُه أشباح الشَّكِّ، ويحصد سيفه رؤوس الظَّنِّ.

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كنايتان بديعتان، أولاهما: عن إقامة الحساب والجزاء يوم القيامة، فهو المترتِّب على العلم، وهو الفائدة مِن ذِكر هذا العلم، فالمعنى أنَّ اللّه تعالى الذي يعلم ما في السَّماء والأرض هو الحَكَمُ بين خلقه يوم القيامة، على علمٍ منه بجميع ما عَمِلوه في الدُّنيا، فمجازي المحسِن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته[2]، "فالكلام كناية عن جزاء كلٍّ بما يليق به"[3].

اللّه تعالى منبِّئٌ عبادَه بما يعملون، وهو مجازيهم بما كانوا يفعلون

وأمّا الكناية الأخرى فهي عن التَّسلية للنَّبيِّ ﷺ ممّا لاقاه من

(1) طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 681.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.

الذين جادلوه مِن بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ، والمعنى: لا تَضِق صدرًا ممّا تلاقيه منهم، فإنَّما حسابهم عند ربِّهم[1].

معنى ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في الآية الكريمة هي الموصولة بمعنى (الذي)، غير أنَّها أعمُّ منه وأشمل؛ ذلك أنَّها تُستخدَم للدَّلالة على ذوات ما لا يعقل، أو صفات ما يعقل[2].

عـمـوم (مـا) يـعـمُّ كـلَّ شيء، ويشمل مـا يـعـمـلـه المـشـركـون، ومـا كـانـوا فيه يخالفون

فقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ أي: يعلم كلَّ ما يحدث في السَّماء والأرض، ولا يخفَى عليه شيء من الأشياء، ومن جملتها: ما يقوله الكَفَرة وما يعملونه[3].

فدلَّ التَّعبير بها على عموم المعلومات من الظَّواهر والخوافي والحسنات والسَّيِّئات وأعمال المؤمنين والكافرين والملائكة والشَّياطين، فسبحان مَن أحاط علمه بكلِّ شيء.

فائدة التّعبير بـ﴿فِي﴾ الظّرفيّة:

أفادت الظَّرفيَّة معنى الوعاء، لتأكيد إحاطة علم الله بما في الأرض والسَّماء

أفاد التَّعبير بـ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ معنى الإحاطة، ذلك أنَّها جعلت السَّماء والأرض ظرفًا يحوي المعلومات، ولمّا كانت السَّماء والأرض تحوي كلَّ شيء فدلَّتِ الظَّرفيَّة على توكيد إحاطة الله بكلِّ شيء علمًا، فما كان داخلًا في محيط السَّماء والأرض - وهذا يعمُّ كلَّ مخلوق - فإنَّ الله به عليم، يشمل هذا كلَّ حيٍّ وفِعلَه.

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ شبه جملة متعلِّق بمحذوف صلة الموصول ﴿مَا﴾[4]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 119، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 552.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 206.

والتَّقدير: (اللّه يعلم ما هو كائن في السَّماء وكائن في الأرض)، وهو يشمل ما يعمله المشركون وما كانوا فيه يخالفون، ففيه تهديد للمعارضين، وتسلية للمؤمنين.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، و: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

بـكـلِّ مـا عـلا ومـا سـفَـل قد أحـاط علمُ الله واكتمل

(أل) في كلمتي: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هي التي للعهد الحضوريِّ أو الذِّهنيِّ؛ أي: السَّماء والأرض المعهودتان المعلومتان، فالمخاطَبون على عِلم بمعناهما، وفي هذا نوعُ تقرير؛ فالأرض التي تُقلُّكم، والسَّماء التي تُظلُّكم لا يخفى على اللّه تعالى ما فيهما ولا ما بينهما، وهو بكلِّ ذلك محيط، وعليه محاسِب.

ويصحُّ أن تكون جنسيَّة، فتشمل كلَّ ما علا وكلَّ ما سَفَلَ ممّا رآه المخاطَبون وما لم يروه أو تُدرِكُه أوهامهم، أو تَبْلُغُه أفهامهم.

نكتة تقديم السّماء على الأرض:

في معرض الثّناء تقدّم السّماء

قدّم السّماء على الأرض؛ لأنّ الكلام في سياق ثنائه تعالى على نفسه والوصف بإحاطة علمه؛ فناسب تقديم السّماء على الأرض لأنّها أعظم من الأرض وأعلى.

وإذا كان اللّه تعالى عالمًا بما في السَّماء - ولا يعلم المخاطَبون شيئًا عمّا يدور فيها - فهو سبحانه بما يدور في الأرض أعلم، فالتَّقدير: (عَلِم اللّه ما لا تعلمون، أفلا يعلم ما تعلمون؟!) فهو من باب الاستدلال بطريق الأوْلى.

نكتة إفراد لفظ السّماء:

عِلم الله تعالى بـالـجُـزئـيّـات كعلمه سبحانه بالكُلّيّات

أفرد لفظ السَّماء في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأنَّ المراد به في الآية الكريمة هو جنس السَّماء، أو الوصف المطلق من العلوِّ والارتفاع والجهة، فيعمُّ كلَّ ما يقابل الأرض، أو لأنَّ المراد بها سماء الدُّنيا المعهودة للمخاطَبين، ويكون عِلم اللّه تعالى بما فيها

دليلًا على علمه بما فوقها مِن السَّماوات، وذلك من باب "أنَّ عِلم اللّه بالجزئيّات كعِلْمِه بالكليّات"[1].

ولمّا كان السّياق لحفظ أحوال الثَّقلين للحُكم بينهم، وكان أكثر ما يُتخيَّل أنَّ بعض الجنِّ يبلغ استراق السَّمع مِن السَّماء الدُّنيا، لم تدْعُ حاجة إلى ذِكر أكثر منها، فأفرد معبِّرًا بما يشمل - لكونه جنسًا - الكثير أيضًا فقال: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ممّا يتَّفق منهم ومن غيرهم من جميع الخلائق الحيوانات وغيرها[2].

بلاغة الإدماج في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إدماج للوعد والوعيد مع بيان إحاطة علم اللّه تعالى بالمعلومات، فهو يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد، وهذا من عجائب الأداء القرآنيِّ، فعِلْم اللّه بكلِّ شيء في السَّماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجري بين خلقه هو وعدٌ للمُحِقِّ، ووعيد للمُبطِل[3].

اللّه عليمٌ بالعباد وأعمالهم، ولا يخفى عليه مستورهم، وسيحاسبهم ويقضي بينهم

وفيه كذلك تعريض بسفاهة المشركين الذين عبدوا من دون اللّه ما لا يعلم شيئًا في السَّماوات والأرض، ففي هذه الآية إخبار اللّه تعالى عن كمال علمه وقدرته وكتابته كلَّ شيء وما هو كائن إلى الأبد، والمشركون على مدار الزَّمان يعبدون آلهة لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني ولا تشفع، وينسون الواحد الأحد العليم العظيم[4].

نكتة الفصل في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ عمّا قبله لما بين الجملتين السّاميتَيْن من كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ الجملة الثّانية مؤكِّدة لمعنى

عليمٌ ربُّنا بالعباد وأحوالهم، وهو محاسبهم على جميع أعمالهم

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 198.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 91.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9926.
(4) مأمون حموش، التفسير المأمون: 5/ 222.

الأولى، وبيان لها؛ أي: يعلم ما في السَّماء والأرض علمًا مفصَّلًا لا يختلف؛ لأنَّ شأن الكتاب أن لا تتطرَّق إليه الزِّيادة والنُّقصان[1].

أو هي بمنزلة التَّعليل لما قبلها[2]، وقد حسن الفصل دون الوصل لتغاير الجملتين إنشاءً وخبرًا.

غرض التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

يعبَّر في سياق المدح بالإشارة للبعيد لإفادة معنى التَّشريف والتَّمجيد

أوثر التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾؛ لأنَّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يشار به إلى البعيد، ويحدِّد السّياق دلالته وغرضه، ولمّا كان المشار إليه في الآية الكريمة شريفًا عُبِّر باسم الإشارة للبعيد لإفادة معنى التَّشريف والتَّمجيد، وللدَّلالة على بُعد حصول ذلك العِلم للمخلوقين، وأنَّه ممّا تفرَّد به ربُّ العالمين.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍ﴾:

دلَّت الظَّرفيَّة على معنى الرَّقْم والتَّسجيل، والحفظ وعدم التَّبديل

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[3].

وهذا هو المراد هاهنا، فإنَّه في قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يدلُّ على أنَّ الكتاب – وهو اللَّوح المحفوظ – صار كالظَّرف المحيط بما سُطِر فيه من دقائق علم الله تعالى؛ أي: إنَّ كلَّ ما يحدث في الكون مسطورٌ، وكلَّ ما تعملونه مرقومٌ مكنونٌ، وأنتم به محاسَبون مجزيّون.

وقد أفادت هذه الظَّرفيَّة معنى الحفظ، والتَّسجيل، وعدم التَّبديل، فليطمئنَّ المؤمن المُقِرّ، وليرعَوِ الكافر المستكبر.

نكتة تنكير ﴿كِتَٰبٍ﴾:

الكتاب عظيمٌ لا تحيط بوصفه عبارة البلغاء، ولا تبلغه عقول الأذكياء

أفاد تنكير الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ معنى التَّعظيم، وهذا ما تسوق إليه القرائن، فالكتاب الحافظ لكلِّ ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 206.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

جرى في الكون ويجري لا يكون إلّا كتابًا عظيمًا لا تحيط بوصفه عبارةُ البلغاء، ولا يُدرِك كُنْهَهُ عقولُ الأذكياء.

فتنكيره إذن؛ لأنَّه ليس من جنس الكتب المتعارَفَة[1]، وهو أمُّ الكتاب الذي قدّر فيه ربُّنا جلَّ ثناؤه قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة[2].

فائدة ذكر الكتاب بعد ذكر تمام العلم:

الإنسان محلُّ النِّسيان، والكتاب محفوظ للحساب

ذُكِر الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ بعد ذِكر تمام عِلم الله سبحانه بكلِّ ما في السَّماء والأرض في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، لأنَّ المقصود من الخطاب هم الثَّقلان: الإنس والجنُّ، ولمّا كان الإنسان محلَّ النسيان، لا يحفظ الأمور إلّا بالكتاب، خاطبه الله تعالى بما يعرفه الإنسان، مع ما فيه مِن عجيب القُدرة[3].

أمّا الأخرى، فضرورةُ الكتاب ليدلَّ النّاسَ أجمعين وليدلَّ الملائكة المطَّلعين على أنَّ الأشياء التي تحدث مستقبلًا قد كتبها الله سبحانه أزلًا، فكتابة الشَّيء قبل أن يكون، ثمَّ مجيء هذا الشَّيءُ موافقًا لما قد كُتِبَ يُعَدُّ أكبر دليل على علم كاتبه وإحاطته، ولا يكون ذلك إلّا للعليم القدير سبحانه وبحمده.

فمجيء الكتاب إنَّما ليكون حجَّة على المكلَّف، فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: 14] فها هو تاريخك، وها هي قصَّتك، ليس كلامًا من عندنا، وإنَّما فعلُك والحُجَّة عليك[4].

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 153.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 681.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 92.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9925.

بلاغة الكناية في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ كنايتان بديعتان: أولاهما عن الحفظ وعدم النِّسيان، وعدم الخلط أو الاضطراب، فالكتاب موضوع للضَّبط والحفظ والتَّسجيل، وهذا مناسب تمام المناسبة لما قبله؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ يدلُّ على تمام علم الله تعالى بعمل كلِّ عاملٍ ونيَّته، وقوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ يدلُّ على أنَّ أعمال العباد محفوظة مسجَّلة، فليطمئنَّ المؤمن بأنَّ الله تعالى لا يضيع أجر مَن أحسن عملًا، وليجزع الكافر بأنَّ كتاب الله سينطق عليه بالحقِّ يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29].

قـــدَّر الـلـه المـقـاديـر قبل خلق الخلائق، وكـتـب كـلَّ شيء العظائم والدَّقائق

وأمّا الكناية الأخرى فعن تمام علم الله تعالى أنَّه عَلِم الأشياء قبل كونها، وقدَّرها وكتبها أيضًا، فما العباد عاملون قد عَلِمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أنَّ هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكلِّ شيء علمًا، وهو سهل عليه، يسير لديه[1].

نكتة الفصل في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عمّا قبله لِما بينهما من كمال الاتِّصال؛ ذلك أنَّ الجملة الثّانية مؤكِّدة لمعنى الأولى، وهي بيان لمضمون الاستفهام من الكتابة عن الجزاء[2].

نكتة التّعبير باسم الإشارة وإعادة ذكره:

التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يشار به إلى البعيد يفيد الدَّلالة على التَّفخيم؛ ذلك أنَّ المشار إليه جليل وعظيم؛ أي أنَّه قد بلغ في العظمة شأوًا بعيدًا.

تـــدلُّ الإشـــارة بـالـبُـعـد على معنى التَّفخيم إذا أُشير بها إلى عظيم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 452.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 332.

وتشير دلالته على البُعد إلى بُعد حصول ذلك العلم للمخلوقين، وأنَّه مما تفرد به ربُّ العالمين، وفي تكراره توكيد لهذا المعنى لا سيَّما مع وصفه بأنَّه يسير على الله؛ أي: إنَّ ذلك العِلم البعيد حصوله عن نوالكم هو يسير على الله تعالى.

تعيين المشار إليه: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الحُكم في الاختلاف، أو إلى كَتْبِ المعلومات في الكتاب[1].

كلُّ ما في الكون صنعة القدير، والصّانع لا يخفى عليه ممّا صنع صغير ولا كبير

فعلى الأوَّل يكون المراد بالإشارة ما جاء في قوله تعالى قبلُ: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: إنَّ الحُكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسيرٌ عليه غير عسير.

وعلى الثّاني يكون المشار إليه ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ أي: إنَّ إحاطة علمه بما في السَّماء والأرض يسير عليه[2].

وهذا القول الثّاني هو الأقرب؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أقرب منه إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فكان إلحاق ذلك بما هو أقرب إليه أولى منه بما بَعُد[3].

غرض التّعبير بحرف الاستعلاء: ﴿عَلَى﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيه معنى الاستعلاء من حيث إنَّ مَن خلق الخلق قد قَدَرَ عليهم، وأحاط بهم عِلْمُه ظاهرًا وباطنًا مستعليًا قاهرًا، عظيمًا قادرًا.

(1) ابن جزي، التسهيل: 2/ 46.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 553.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 682.

نكتة الإظهار في موضع الإضمار:

في قول الله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ إظهار في مقام الإضمار، إذ كان الأصل: إنَّ ذلك عليه يسير؛ لتقدُّم ذكر لفظ الجلال في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾.

الله هو الإله الحقّ، فلا جَرَمَ يَقْدِر على كلّ شيء

ونكتة هذا الإظهار في موضع الإضمار هي إفادة معنى التَّعظيم والتَّعليل؛ لأنَّه إذا جاء الوَصْف مُعلَّقًا عليه حُكْم من الأحكام دلَّ ذلك على عِلِّيَّة هذا الوَصفِ.

غرض تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

عِلم كلّ شيء مقتصر على الله، فلا يقدر على ذلك مِن أحد سواه

قُدِّم شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لإفادة القصر؛ أي: إنَّ ذلك يسير على الله وحدَه دون غيرِه[1]، وللاهتمام بذكره للدَّلالة على إمكانه في جانب علم الله تعالى[2]، وفيه - مع الاهتمام وإفادة القصر - مناسبة رؤوس الآي[3]، فجمع مع براعة اللَّفظ بلاغة المعنى.

نكتة تنكير ﴿يَسِيرٞ﴾:

كلُّ شيء على الله يسير، وبجنب قدرته سهل حقير

جاءت لفظة ﴿يَسِيرٞ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لإفادة معنى التَّهوين والتَّقليل؛ أي إنَّ عِلْم الله بجميع ما ذُكِر سهل عليه يسيرٌ، لا يتعذَّر عليه العِلم به[4]؛ فإنَّ ذلك الاطِّلاع على الوجه المذكور على الله المتَّصف بجميع أوصاف الكمال يسير، وبجنب قدرته وإرادته سهلٌ حقير[5].

الكناية في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾:

يعلم الله السِّرَّ والنَّجوى، وما تكون حاجة العبد له أمسَّ وأقوى

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾؛ أي: فهو لا يفوته شيء من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 189.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 332.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 189.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 249.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/ 561.

أعمالكم فيجازي كلًّا على حساب عمله، فالكلام كناية عن جزاء كلٍّ بما يليق به.

"وهذا يفيد أنَّ الحُكم يوم القيامة بالعدل الذي لا جَوْر فيه"[1].

وهذا تصوير لضِدِّه وهو صعوبة مثل ذلك على غيره وإلّا فلا مدخل لليُسر والصُّعوبة في كمال قدرته سبحانه[2]؛ أي: وإن كان تصوُّره عندكم لا يُحاط به، فاللّٰه تعالى يسيرٌ عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اليسير والهيّن:

في اليُسر جريان الأمـــور بـلا عوائق، والهَوْن سـهـولـتـه من الخِفَّة واللين

المعنى المحوريّ لجذر الياء والسّين والرّاء يدور حول سريان الشَّيء مستطابًا بلطفٍ واتّصال، ومن ذلك اليُسر بمعنى: ضدّ العسر؛ ففيه جريان الأمور بلا عوائق[4].

أمّا المعنى المحوريّ للهاء والواو والنّون فيدور حول لين الشيء، ومِن هذا اللين يأتي معنى السهولة[5]، ويأتي من معنى الخِفّة التي في الهَوْن: مصدرُ هانَ عليه الشيءُ، أي: خَفَّ، ويقال: هوَّنه اللّٰهُ عليه، أي: سهَّله وخفَّفه، وشيء هيِّن، أي: سهل[6].

(1) محمد حجازي، التفسير الواضح: 2/ 605.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 100.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 545.
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يسر).
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (هون).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (هون).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»